هدية لمكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

مجلة البيان – العدد ٨ ، صفر ١٤٠٨ هـ / أكتوبر ١٩٨٧

الافتتاحية

.. والحديث مستمر حول حطين

قد يبدو من الغريب أن يتفق الخصوم على الاحتفال بذكرى موقعة كانت نصراً لجانب، وهزيمة لجانب آخر ، وأن يتبارى الجانبان في إعادة دراسة هذه المعركة وتقويمها واستخلاص الدروس منها.

ولكن هذا الأمر لا ينبغي أن يثير العجب إذا كان حول معركة مثل معركة "حطين". فإذا كانت هذه المعركة تمثل علامة بارزة في التاريخ العربي والإسلامي ، وتعتبر وسام فخر واعتزاز لا للقائد الذي قادها - وهو صلاح الدين - فحسب ، بل للأمة التي عمل من أجلها ، وللفكر الذي كان صلاح الدين يمثله ، وهو الفكر الإسلامي - فإنها تعتبر نقطة مهمة في التاريخ العالمي. فعلى الرغم من أن الصليبيين قد انهزموا فيها هزيمة منكرة ، ولم تقم لهم بعدها قائمة تذكر ، إلا أنهم انكبوا على دراسة النتائج التي حصلت نتيجة احتكاكهم المسلح بالمسلمين، وعكفوا على الانتفاع من معرفتهم لأحوال المسلمين عن قرب، ومن تحليلهم للعوامل المؤثرة في انتصارهم وهزيمتهم ، وهكذا شكلت معركة حطين منعطفاً مهماً في حياة الغربيين. وكذلك فإن حوادث التاريخ قد تتشابه ، فاحتلال اليهود لفلسطين ، وإقامتهم دولتهم فيها بمساعدة ومساندة من الغرب الصليبي ، في فترة ضعف وتفرق من المسلمين ؛ وعلى الرغم من مرور أربعين عاماً على ذلك ، ومع هذا ، وعلى الرغم مما ينتاب العرب من مصاعب ومآس ، وما يعوقهم من شتات وتناحر ؛ فإن إسرائيل لازالت جسماً غريباً مرفوضاً من الغالبية العظمى للشعوب المحيطة بها ، ولا يبدو في الأفق أي تغير في تقبل هذه الشعوب لهذا الجسم الغريب ، على الرغم مما يجري بين الحين والآخر مما يسمى بالصلح أو بإمكانية التعايش.

لهذا كله قد يبدو مفهوما أن يتنادى مؤرخو الحروب الصليبية إلى مؤتمر لهم في القدس وحيفا بمناسبة مرور ٨٠٠ سنة على معركة حطين.

ومن جهة أخرى نجد أن أكثر دولة عربية دعت إلى الاحتفال بهذه المعركة ، إن لم يكن غيرة وخجلاً من احتفال الأعداء بها ؛ بينما نحن أولى منهم بذلك ، فلأن الواقع المؤلم الذين نعيشه يفرض علينا أن نجرد كل طاقاتنا المعنوية إلى جانب الطاقات المادية في وجه الذين يستهدفون عقيدتنا وأرضنا بل وجودنا كله.

وإذا كان احتفال الدول العربية بهذه المناسبة ينطوي - في جانب منه - على إدراك محمود لأهميتها ومكانتها من مجمل تاريخنا وصراعنا مع قوى الشر ، إلا أنه مما يحز في النفس ، ويؤلم الفؤاد، أن يجيء إحياء هذه المناسبة بصورة تخالف عملياً دلالتها التوحيدية. إذ، أي شيء أكثر ألماً وأقسى أثراً من احتفال كل دولة على انفراد، وبطريقتها الخاصة ؛ بهذه المعركة الخالدة ؟.

أليس من التناقض ، بل ومن السخرية والهزء بمعانيها وبالأهداف التي عمل لها قائدها: صلاح الدين ؛ أن نحتفل بها ، بينما نطبق عملياً فكر من هزمهم صلاح الدين ، ونرفع بيننا حدود من أجلاهم صلاح الدين ، ونعمق معاني العصبية والإقليمية والطائفية التي حاربها صلاح الدين ؟.

ثم أليس من الفكر المشوه الذليل، والترديد الممجوج الثقيل، الذي يمثل غباء في فهم التاريخ وإصراراً عليه؛ ما نقرأه للأمين العام للجامعة العربية في هذه المناسبة حيث يقول: